المقدمة

يا سيد "بات، إننا نفقد البلد الذي نشأنا فيه."

مرة تلو الأخرى سمعت هذا الرثاء في الحملة الانتخابية الطويلة في العام ٢٠٠٠ من الرجال والنساء عبر ربوع أمريكا. ولكن ما الذي يعنونه بهذا القول؟

لماذا ينبغي للحزن أو للاكتئاب - وكأن والد المرء كان في نزع الموت وليس هناك من شيء يمكن عمله - أن يزحف إلى قلوب الأمريكيين في نهاية "القرن الأمريكي الثاني"؟ ألم تكن هذه الأوقات، كما ذكّرنا السيد كلينتون باستمرار، هي أفضل الأوقات في أمريكا، ففيها أخفض نسب البطالة والتضخم في غضون ثلاثين عاما، وفيها تنخفض معدلات الجريمة، وفيها ترتفع الدخول محلقة؟ ألسنا كما تقول مادلين أولبرايت ولم تتوقف عن التبجح "الأمة التي لا يستغنى عنها"؟ ألم يكن هذا هو زماننا، كما ينفخ السيد بوش في أبواقه، زمن "القوة العسكرية التي لا تنافس، والوعد الاقتصادي، والتأثير الثقافي"؟[1] لقد ربحنا الحرب الباردة. وأفكارنا كانت تربح في كل أرجاء العالم. عم يتحدثون؟ وما هي مشكلتهم؟

إن مشكلتهم هي هذه: إن أمريكا تعرضت لثورة ثقافية واجتماعية. ونحن لسنا البلاد نفسها التي كُنّاها في ١٩٧٠ أو حتى في ١٩٨٠. لسنا الشعب نفسه. بعد انتخابات ٢٠٠٠، قال وليام ماك إنترف، وهو مستطلع للرأي العام، في تصريح للواشنطون بوست:"عندنا قوتان ضخمتان تصطدمان. واحدة ريفية، مسيحية، محافظة دينيا. [والأخرى] متسامحة اجتماعيا، توافق على تخيير المرأة بين الحمل أو عدمه، علمانية، تعيش في نيو إنجلاند وعلى شاطئ المحيط الهادئ..."[٢]

قال دزرائيلي عن إنجلترا في العصر الفيكتوري إنها كانت "أمتين"، أغنياء وفقراء.[٣] وكتب الروائي جون دوس باسوس بعد محاكمة ساكو وفانزيتي، "حسنا، نحن أمتان."[٤] وعندما كنت أنصت إلى الخطاب الافتتاحي للرئيس بوش، علق في الذهن سطر منه. فقد بدا أن الرئيس بوش قد سمع ما سمعت، ووجد ما وجدت، فقال: "وأحيانا تنساب خلافاتنا عميقا، إلى الدرجة التي يبدو فيها أننا نتقاسم قارة، ولكنها ليست بلدا."[٥]

وفي الوقت الذي خلقت فيه أحداث ١١ سبتمبر المروعة وحدة وطنية لم نشهدها منذ بيرل هاربر. خلف الرئيس بوش وتصميمه على أن يعاقب مرتكبي المذبحة التي ارتكبت بحق ٥٠٠٠ أمريكي. فإن تلك الأحداث كشفت أيضا خط انقسام جديد. إن الصدع الذي

أصاب بلادنا ليس متعلقا بالدخل، أو بالإيديولوجية، أو بالعقيدة، ولكنه متعلق بالعرقية وبالولاء. فجأة، استفقنا على الإدراك بأن من بين ملايينا من الذين ولدوا أجانب ثلثاً يقيم إقامة غير قانونية، وبأن عشرات من الألوف موالون لأنظمة حكم يمكن أن نكون في حالة حرب معها، وبعض هؤلاء المقيمين مدربون ليكونوا إرهابيين أرسلوا هنا ليقتلوا الأمريكيين. ولأول مرة منذ أن دحر أندرو جاكسون البريطانيين إلى خارج لويزيانا في العام ١٨١٥، هناك عدو داخل الأبواب، والشعب الأمريكي معرض للخطر في بلده. في هذه الأيام بعد ١١سبتمبر، رأى الكثيرون فجأة كيف تغير وجه أمريكا في أثناء مدة حياتهم الخاصة.

عندما أقسم الرئيس نكسون اليمين في المنصب في العام ١٩٦٩، كان هناك تسعة ملايين نسمة ولدوا أجانب يعيشون في أمريكا. وعندما رفع الرئيس بوش يده للقسم كان العدد يقارب ثلاثين مليونا. ويدخل تقريبا مليون مهاجر في كل عام، ويدخل معهم نصف مليون من الغرباء بشكل غير قانوني. ويقدر الإحصاء المعدل لعام ٢٠٠٠ عدد المقيمين غير القانونين في الولايات المتحدة بتسعة ملايين. وتقدرهم الجامعة الشمالية الشرقية بأحد عشر مليونا، أي أن هناك من الغرباء غير القانونيين ما يساوي عدد الناس في ألاباما، ومسيسسيبي، ولويزيانا.[٦] وفي كاليفورنيا، هناك من الذين

ولدوا أجانب ٨,٤ من الملايين، وهذا أكثر من الناس في نيو جرسي، وهناك من الذين ولدوا أجانب في ولاية نيويورك ما يفوق عدد الناس في كارولاينا الجنوبية. وحتى الموجة العظمى من الهجرة التي جاءت من العام ١٨٩٠ إلى العام ١٩٢٠ لم تكن شيئا مثل هذا.

كتب إسرائيل زانغويل، الكاتب المسرحي اليهودي الروسي، في مسرحيته المشهورة بوتقة الانصهار،[٧] في العام ١٩٠٨: "أمريكا هي بوتقة الله، هي بوتقة الانصهار العظيمة، وفيها تذوب كل أجناس أوروبا ويعاد تشكيلها." ولكن موجة الهجرة الهائلة، الآتية مثل موجة ضخمة في المحيط أحدثها زلزال أو بركان، والمتدحرجة فوق أمريكا ليست قادمة من "كل أجناس أوروبا." وأضخم رحيل للسكان في التاريخ يأتي من كل أجناس آسيا، وأفريقيا، وأمريكا اللاتينية، وهم لا "يذوبون ويعاد تشكيلهم."

في العام ١٩٦٠ كان هناك ستون مليون أمريكي فقط لا يرجعون بأجدادهم إلى أوروبا. أما اليوم فالعدد يبلغ ثمانين مليونا. وليس هناك من أمة سبق لها أن عانت تحولا بمثل هذه السرعة والجذرية. في ولاية بورتلاند في العام ١٩٩٨ تحدث السيد كلينتون بالثناء البالغ والحماسة إلى جمهور من الطلاب الهاتفين له عن يوم سيكون فيه الأمريكيون المنحدرون من أوروبا أقلية:

> اليوم، وبسبب الهجرة إلى حد كبير، ليس هناك جنس غالب في هاواي أو في هيوستون أو في مدينة نيويورك. وفي غضون خمس

سنوات لن يكون هناك جنس هو الأغلبية في أكبر ولاياتنا، كاليفورنيا. وفي أكثر قليلا من خمسين سنة لن يكون هناك جنس هو الأغلبية في الولايات المتحدة. وليس هناك من أمة أخرى في العالم خبرت التغيير السكاني في مثل هذه الضخامة وفي مثل هذا الوقت القصير.[٨]

تصحيح: ليس هناك من أمة في التاريخ خبرت التغيير السكاني في مثل هذه الضخامة، وفي مثل هذا الوقت القصير، وبقيت هي الأمة نفسها . لقد أكد لنا السيد كلينتون بأنها ستكون أمريكا أفضل عندما نكون كلنا أقليات وندرك "التنوع" الحقيقي . حسنا، هؤلاء الطلاب سيكتشفون ذلك، لأنهم سوف يقضون سنواتهم الذهبية في أمريكا عالم ثالث.

الهجرة غير المسيطر عليها تهدد بتفكيك الأمة التي نشأنا فيها، وتحول أمريكا إلى شعوب ململمة بدون أي شيء مشترك بينها تقريبا . لا التاريخ، ولا الأبطال، ولا اللغة، ولا الثقافة، ولا العقيدة، ولا الأجداد . البلقنة تومئ. ويكتب جاك بارزن في تاريخه للغرب من الفجر إلى الانحطاط: "إن أقوى اتجاه في أواخر [القرن العشرين] كان هو الاتجاه نحو الانفصالية... لقد أثرت في كل أشكال الوحدة... إن مثال التعددية قد تفكك وأخذت الانفصالية مكانه. وكما قال أحد المتحزبين لهذا الهدف، "صحن السلطة أفضل

من بوتقة الانصهار".[٩] (*) إن أمم أوروبا العظيمة بدأت تتجزأ. ويكتب بارزن:

> إذا ما مسح المرء الغرب... فإنه يستطيع أن يرى أن أعظم إبداع سياسي للغرب، وهو الدولة ـ الأمة، قد ضرب. في بريطانيا العظمى حازت الممالك السابقة في سكوتلاندا وفي ويلز على برلمانات حكم ذاتي، وفي فرنسا صاح البريتون، والباسك، وسكان الألزاس يطالبون بالسلطة الإقليمية. وكورسيكا أرادت الاستقلال مع لغة خاصة بها. وإيطاليا تؤوي عصبة تعمل على فصل الشمال عن الجنوب، والبندقية أنتجت حزبا صغيرا يريد أن تكون مدينتهم ولاية منفصلة... [١٠]

وفي الوقت الذي يعيد الناس ولاءهم للبلاد التي جاؤوا منها، فإن النخب العابرة للقوميات تشدنا في الاتجاه المعاكس. ويُنادى الآن على المكشوف بالتسليم الأخير للسيادة القومية للحكومة العالمية. ومن وولتر كرونكايت إلى ستروب تالبوت، ومن الجمعية الفدرالية العالمية إلى قمة الألفية في الأمم المتحدة، يتنامى الكورس.

في ماسترخت في العام ١٩٩١، قررت خمس عشرة دولة أوروبية بما فيها فرنسا، وإيطاليا، وألمانيا، وبريطانيا العظمى أن

(*) تعبير ألفه الأمريكان وهو يعني أن الفروق تذوب في أمريكا وتصبح الهوية أمريكية فقط دون معرفة أصله أما صحن السلطة فإن عناصره تبقى واضحة متميزة"

تبدأ بتحويل منطقتهم للتجارة الحرة إلى اتحاد سياسي ونقل سلطاتهم السيادية إلى دولة كبيرة اشتراكية فوق الدول. وفي العام ٢٠٠٠ جاء إلى هنا الرئيس المكسيكي المنتخب ليعرض اتحاداً لشمال أمريكا من كندا، والمكسيك، والولايات المتحدة. وعلى الرغم من أن محو حدودنا سيعني نهاية أمتنا، فإن فاسنت فوكس قد استقبل وجرى الترحيب به في وسائل الإعلام الأمريكية بوصفه صاحب رؤية وبعد نظر، وعبر الرئيس كلينتون عن أسفه بأنه قد لا يكون موجودا ليرى هذا الاتحاد متحققا: وقال "أعتقد بأن بلدينا، على المدى البعيد، سيصيران أكثر اعتمادا إحدهما على الآخر... ستكون هذه هي طريقة العالم... ويؤسفني أنني لن أكون موجودا عند تنفيذ، الكثير منها. ولكني أعتقد بأنها شيء جيد."[١١]

وليست أمريكا محصنة ضد القوى الانفصالية. والإحساس بأن أمريكا أيضا، تشد باتجاه التفكك على طول خطوط سلالات الجنس والعرق العنصري هو إحساس ينتشر. وزيادة على ما تقدم فإن أمريكا قد عانت ثورة ثقافية وهناك الآن نخبة جديدة تحتل المناصب العليا الحاكمة. وتقوم هذه النخبة من خلال إمساكها بالمؤسسات التي تشكل وتبث الأفكار، والآراء، والمعتقدات، والقيم. التلفاز، والفنون، والترفيه، والتربية والتعليم. تقوم هذه النخبة بخلق شعب جديد. فنحن لم نبق شعبا واحدا أو "أمة واحدة تحت رعاية

الله" لا من ناحية السلالات الجنسية والعرقية العنصرية فقط بل ومن الناحية الثقافية والأخلاقية أيضا.

لقد بدأ الملايين يشعرون بأنهم غرباء في أرضهم. إنهم يصدون عن ثقافة عامة مشبعة بالجنس الفج وتتفخ في البوق لقيم اللذات. إنهم يرون الأعياد القديمة تختفي ويرون الأبطال القدامى يحط من أقدارهم. إنهم يرون فن الماضي المجيد ومشغولاته اليدوية تُزال من متاحفهم ويوضع بدلا عنها ما يثير الكآبة، والقبيح، والمجرد، والمناوئ لأمريكا. إنهم يشاهدون الكتب التي أحبوها تختفي من المدارس التي درسوا فيها، كي تستبدل بمؤلفين وبعناوين لم يسمعوا بها من قبل أبدا. والنظام الأخلاقي الذي نُشِّئوا ليعيشوا وفقه قد هدم. والثقافة التي ترعرعوا معها تموت داخل البلد الذي نشؤوا فيه.

في مدى نصف مدة العمر، رأى العديد من الأمريكيين أن إلههم قد أزيح عن عرشه، وأن أبطالهم قد انتقصت أقدارهم، وأن ثقافتهم قد لوثت، وأن قيمهم قد هوجمت، وأن بلادهم قد غزيت، وأنهم هم أنفسهم قد نظر إليهم بصفتهم شياطين متطرفين ومتعصبين لأنهم تمسكوا بمعتقدات تمسك بها الأمريكيون لأجيال. وكما قال بيرك "لكي تجعلنا نحب بلادنا يجب على بلادنا أن تكون حبيبة جميلة."[١٢] وفي العديد من النواحي لم تبق أمريكا حبيبة جميلة. وعلى الرغم من أنها تبقى بلدا عظيما، فإن العديدين

يتساءلون إن كانت أمريكا ما تزال بلدا طيبا جيدا. والبعض يشعر أنها لم تبق بلدهم. ويقولون: نحن لم نترك أمريكا بل إن أمريكا هي التي تركتنا. وكما كتب يوريبيديس" ليس هناك حزن على وجه الأرض أكبر من فقد الإنسان لأرضه الوطنية."[١٣]

عندما استسلم جيش كورنواليس وخرج من يوركتاون عزفت المزامير والطبول في فرقة موسيقية "انقلب العالم رأسا على عقب." والآن فإن عالمنا قد انقلب رأسا على عقب. ما كان حقا وصدقا بالأمس هو اليوم خاطئ وكاذب. وما كان غير أخلاقي ومخزيا ـ الزنا، والإجهاض، والانتحار، والقتل الرحيم ـ قد صار تقدميا ويستحق الثناء. وقد سمى نيتشه ذلك نقل التقييم لكل القيم. الفضائل القديمة تتحول إلى خطيئات، والخطيئات القديمة تتحول إلى فضائل.

في كل بضع سنوات، تنفجر عاصفة عندما تفلت من شخصية عامة كلمات تقول: "إن أمريكا أمة مسيحية !" لقد كانت في السابق، ومع ذلك فإن أكثرية من الناس ما تزال تسمي نفسها مسيحية. ولكن ثقافتنا السائدة ينبغي أن تسمى بدقة أكبر ثقافة ما بعد المسيحية، أو الثقافة المناوئة للمسيحية، لأن القيم التي تحتفي بها هي النقيض لما كان يعني أن تكون مسيحيا.

كانت أول توصية تلقاها موسى (عليه السلام) على جبل سيناء "أنا الله ربك، لا ينبغي لك أن تتخذ آلهة من دوني." ولكن الثقافة

الجديدة ترفض الله الذي جاء في العهد القديم وتحرق بخورها على مذبح الاقتصاد العولمي. إن "أرباب سوق الشاعر" كبلينغ قد نحّت رب الإنجيل جانبا. وغدا الجنس، والشهرة، والمال، والسلطة هي كل ما تدور حوله أمريكا.

إننا بلدان، وشعبان. أمريكا قديمة تموت، وأمريكا جديدة تنال ما تستحق. الأمريكيون الجدد الذين نشؤوا في الستينات من ١٩٦٠والسنوات التالية لها لم يحبوا أمريكا القديمة. حسبوها بلدا متعصبا رجعيا قمعيا مملا. ولذلك نفضوا الغبار عن أعقابهم وانطلقوا يبنون أمريكا جديدة، وقد نجحوا. وبالنسبة إلى شمامسة الثورة الثقافية كانت الثورة مجيدة. وبالنسبة للملايين فإن هؤلاء قد استبدلوا البلد الطيب الذي نشأنا فيه بأخر هو أرض اليباب الثقافي وأنابيب تصريف المجاري الأخلاقية التي لا تستحق أن يعيش المرء فيها ولا تستحق أن يقاتل في سبيلها ـ إنها بلدهم، وليست بلدنا.

في انتخابات ٢٠٠٠ كانت الخلافات السياسية بين أحزاب الطريق الدائري(*)غير ذات أهمية. السيد بوش أراد تخفيضا كبيرا في الضريبة أكثر مما أراد السيد غور لأن هذا الأخير يريد أن يصرف أكثر على الدواء الموصوف في وصفات طبية. لماذا إذن

(*) هو الخط الدائري المحيط بالعاصمة.

المرارة والحدة لإعادة عد الأصوات في فلوريدا؟ قال تيري تيتشاوت في تقييمه الذي كتبه بعد الانتخابات عن أمريكا المستقطبة: "إن الشدة في العداء التي تنازع بها معسكرا بوش وغور حول نتائج الانتخابات في العام ٢٠٠٠ عكست بوضوح كبير جدا ضخامة خلافاتهما الثقافية، وقد يكون أن لهجة أجواء ذلك النزاع سوف تميز السياسة الأمريكية طوال المستقبل المنظور."[١٤]

بالضبط. إن همجية سياستنا تعكس عمق الانقسام الأخلاقي الذي يفصلنا بصفتنا أمريكيين. مئات المرات في الحملة الانتخابية لعام ٢٠٠٠ كان يجئ ناخب أو ناخبة ويقول لي إنه صدّقني ووافق معي، ولكنه لا يستطيع أن يصوت لي. هؤلاء الناس كان عليهم أن يصوتوا لبوش، لأن بوش فقط كان يستطيع أن يبقي غور خارج البيت الأبيض، و "علينا أن نوقف غور !" لم يكن الأمر أنهم اختلفوا مع كلينتون وغور. لقد كرهوهما. إن الثورة الثقافية قد سممت السياسة الأمريكية، ولم نبدأ بعد برؤية الأسوأ في ذلك.

في الساعات التي تلت ذلك الصباح المرعب في ١١ سبتمبر، اجتمع الأمريكيون مرة ثانية - في الأسى والحزن على خسائرنا المروعة، وفي الإعجاب والاحترام للإطفائيين الأبطال الذين هرعوا إلى مركز التجارة العالمي حين كان آخرون يهرعون خارجين منه طلبا للسلامة، وفي غضبنا وتصميمنا على أن نطبق العدالة على

الذين فعلوا هذا لأبناء بلادنا. ولكن مع مجيء شهر أكتوبر، بدأت تلك الوحدة تتلاشى. ولن تعمر، بعد انتصاراتنا الأولى في الحرب ضد الإرهاب، أكثر مما عمر الدعم الذي وصلت نسبته ٩٠ بالمائة للرئيس بوش الأول بعد نصره في عاصفة الصحراء. وذلك لأن انقساماتنا متجذرة في أعمق معتقداتنا، وحول هذه المعتقدات ينقسم الأمريكيون تقريبا بقدر ما كنا منقسمين عندما أعطى الجنرال بوريغارد الأمر بإطلاق النار على فورت سمتر.

مرة أخرى ينفصل أحدنا عن الآخر، ولكنه في هذه المرة فقط، انفصال في القلوب.

في خطاب من أكثر الخطابات إثارة للنزاع العام في القرن العشرين قلت في العام ١٩٩٢ للمؤتمر الوطني الجمهوري المجتمع في هيوستن:

> أيها الأصدقاء، إن هذه الانتخابات تدور حول أكثر من مجرد من يحصل على ماذا. إنها تدور على من نكون نحن. إنها تدور حول ما نعتقد، إنها تدور حول ما الذي نعنيه ونمثله نحن بصفتنا أمريكيين. هناك حرب دينية تقوم في بلادنا من أجل روح أمريكا. إنها حرب ثقافية، وهي على الدرجة نفسها من الحسم بالنسبة إلى نوع الأمة التي سنكونها يوما ما مثلما كانت الحرب الباردة حاسمة بالنسبة إلينا. وفي ذلك الصراع من أجل روح أمريكا، فإن كلينتون وكلينتون

في الجانب الآخر، وجورج بوش في جانبنا. وبهذا فإن علينا أن نعود للبيت. ونقف إلى جانبه.[١٥]

أشعلت هذه الكلمات عاصفة نارية ظلت لاهبة طوال العام ١٩٩٢، ولم تخمد نارها حتى الآن. وقيل عن كلماتي إنها كانت مفرقة ومفعمة بالكراهية. كلماتي لم تكن كذلك.كانت مفرقة ومفعمة بالحقيقة. دع الآخرين يحكمون، بعد ثماني سنوات، هل كنت قد قلت الحقيقة أم لا عن بِلّ وهيلاري كلينتون .

ولكن السيد كلينتون أُنقذ من اتهام معين لأنه شَخْصنَ الجانب الآخر من تلك الحرب الثقافية، ولأن إزاحته كانت ستعرض مكاسب العقد للمخاطر. وما من ديمقراطي واحد صوت لإدانة السيد كلينتون وهذا الموقف يشهد بنجاح الثورة في الإطاحة بالنظام الأخلاقي القديم وبمعاييره الموضوعية للحقيقة، والأخلاقيات، والعدالة. وبالنسبة للنخبة الجديدة، فإن ما يقدم الثورة أخلاقي، وما يهددها لاأخلاقي. بين الشيوخ الديمقراطيين والمحلفين في قضية أو. جيه. هناك تعادل أخلاقي: انتصرت الحقيقة، والعدالة، والأخلاقيات في كلتا القضيتين لأن جانبنا ربح ورجلنا أفلت من العقوبة.

إن الثورة البلشفية التي بدأت باجتياح القصر الشتوي في العام١٩١٧ ماتت مع سقوط جدار برلين في العام ١٩٨٩. وكان حلم المؤمنين الحقيقيين بها هو خلق إنسان اشتراكي جديد. ولكن رعب

الشرطة، ومعسكرات الغولاغ، وسبعين عاما من إشراب الأطفال بكراهية الغرب وبتفوق ماركس ولينين لم تنجح. كانت الشيوعية هي الإله الذي فشل. وعندما انهار البناء القوي الذي بني على أساس من الأكاذيب قامت شعوب أوروبا الشرقية وروسيا برمي تماثيل ستالين ولينين وكتب ماركس وأنجلز إلى مزبلة التاريخ بدون الالتفات إلى الخلف.

ولكن الثورة التي انفجرت في الستينيات من ١٩٦٠في ساحات الجامعات نجحت حيث فشلت ثورة لينين. لقد مدت جذوراً في المجتمع، وخلقت أمريكا جديدة. ومع مجيء العام ٢٠٠٠ صارت الثقافة المناهضة في الستينات من ١٩٦٠ هي ثقافتنا المهيمنة، واعتُرِف بانتصارها، وإن بتردد، عندما رفعتْ القاعدةُ السياسية لمعسكر المحافظة العلم الأبيض في فيلاديلفيا. وبالنسبة للقضايا الأخلاقية والاجتماعية ـ القتال من أجل قداسة الحياة الإنسانية وعودة الله إلى الميدان العام لهذه البلاد التي اعتدنا أن ندعوها "بلاد الله" ـ فإن الحزب الجمهوري رفع قفازاته وناشد، " لا مزيد"

في كتاب موت الغرب آمل أن أصف هذه الثورة ـ ماذا تعنيه، ومن أين جاءت، وكيف مضت تزيح إلهنا عن عرشه، وتدمر معابدنا، وتغير معتقداتنا، وتأسر النشء من الشباب، وبم ينذر انتصارها. وذلك لأن هذه الثورة ليست فريدة بالنسبة لنا، لقد أمسكت بكل أمم الغرب. إن حضارة، وثقافة، وإيمانا، ونظاما أخلاقيا متجذرا

في ذلك الإيمان كلها تزول وتموت ويستبدل بها حضارة جديدة، وثقافة جديدة، وإيمان جديد، ونظام أخلاقي جديد.

ولكن عنوان الكتاب هو موت الغرب. فعلى الرغم من أن حربنا الثقافية قد قسمتنا، والهجرة الضخمة تعرض أمريكا لخطر البلقنة، فإن هناك أزمة أخطر وأقرب تكاد تقع.

الغرب يموت. لقد توقفت أممه عن التكاثر، وتوقف سكانه عن النمو وبدؤوا بالانكماش. ولم يقم منذ الموت الأسود الذي حصد أرواح ثلث سكان أوروبا في القرن الرابع عشر تهديد أخطر لبقاء الحضارة الأوروبية من هذا الخطر الماثل. اليوم، هناك سبعة عشر بلداً أوروبياً فيها جنازات دفن أكثر من احتفالات الولادة، وهناك أكفان أكثر من المهود. والبلدان هي: بلجيكا، وبلغاريا، وكرواتيا، وجمهورية التشيك، والدانمارك، وإستونيا، وألمانيا، وهنغاريا، وإيطاليا، ولاتافيا، وليتوانيا، والبرتغال، ورومانيا، وسلوفاكيا، وسلوفينيا، وإسبانيا، وروسيا.[١٦] والكاثوليك، والبروتستانت، والأرثوذكس - أي جميع ملل الإيمان المسيحي ممثلون في المسيرة العظيمة لموت الغرب.

يبدو أن مبدأ اللذة الجديد غير قادر على إعطاء الناس سببا كافيا ليستمروا في الحياة. وثماره المبكرة تبدو سامة. فهل ستبرهن هذه الثقافة الجديدة "المحررة" التي احتضنها شبابنا بحماسة على

أنها عامل مسرطن أقتل منها كلها؟ وإذا كان الغرب في قبضة "ثقافة الموت" كما يجادل البابا وكما تبين الإحصاءات على ما يبدو، فهل توشك الحضارة الغربية أن تلحق بإمبراطورية لينين إلى النهاية المشينة نفسها؟

قبل قرن من الزمان كتب غوستاف لوبون في كتابه الكلاسيكي الجمهور:

> إن السبب الحقيقي للانقلابات الفجائية الضخمة التي تسبق تغييرات الحضارات، مثل سقوط الإمبراطورية الرومانية وظهور الإمبراطورية العربية، هو تعديل عميق في أفكار الناس... إن أحداث التاريخ المشهودة هي الآثار المرئية للتغييرات غير المرئية للفكر الإنساني... والعصر الحالي هو واحد من هذه اللحظات الحاسمة التي يتعرض فيها فكر الإنسانية لعملية تحول.[١٧]

كان لوبون يتحدث عن زمانه هو، في نهاية القرن التاسع عشر، ولكن ما كتبه يصح على زماننا أيضا.

لأن هذه الثورة الثقافية هي التي أدت بالضبط إلى مثل هذا "التعديل العميق في أفكار" الناس. وهذه الأفكار جعلت النخبة الغربية غير مبالية بموت حضارتهم. ويبدو أنهم لا يهتمون فيما إذا جاءت نهاية الغرب بزوال السكان، أو بتسليم القومية، أو بالغرق

بأمواج من المهاجرين من العالم الثالث. والآن وقد ذهبت الإمبراطوريات الغربية كلها، فإن الإنسان الغربي، وقد أعفي من واجبه نحو تمدين البشرية وتنصيرها، وهو يستغرق بالرفاهية في عصرنا المتصف بالإفراط بالمتع الشخصية، يبدو أنه قد فقد إرادته ليعيش وقبلت نفسه موته الوشيك. هل نحن في وقت شفق الغروب في الغرب؟ هل موت الغرب لا رجعة عنه؟ دعنا نراجع تقرير علماء الأمراض.